العنوان: الطباعة بالأحرف العربية في استنابول
المصدر: المجلة المغربية للتوثيق والمعلومات (تونس)
المؤلف الرئيسي: قدورة، وحيد
المجلد/العدد: ع 4
محكمة: نعم
التاريخ الميلادي: 1986
الشهر: مارس
الصفحات: 298 - 303
رقم MD: 107399
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: ACI, HumanIndex
مواضيع: العصر العثماني، الطباعة بالأحرف العربية، تاريخ الطباعة، استانبول، الدولة العثمانية، العالم العربي، سوريا، حلب، الكتب الإسلامية، النشر، بيروت، التراث العربي، المطابع، مستخلصات الأبحاث
رابط: http://search.mandumah.com/Record/107399

GDOURA (Wahid). — Le début de l'imprimerie arabe à Istanbul et en Syrie : Evolution de l'environnement culturel (1706-1787) / Wahid Gdoura. — Tunis : Institut Supérieur de Documentation, 1985. — 312 p. — 7 p (Publications de l'Institut Supérieur de Documentation. 8).

لم يبرز فن الطباعـة بالأحرف العربيـة بالمشرق إلا بعد قرنين ونصف من ظهوره بأروبا وفي الأثناء حافظ المخطوط العربي على مكانته لدى المتعلمين باعتبـاره وعـاء الكتـابة الرئيسي لنقل المعلومات إلى أن بادرت الطائفـة الأرثودكسيـة بسوريا بتأسيس أول مطبعـة عربيـة وذلك بحلب سنـة 1118 هـ/1706 م ثـم تـلاهـا المسلـمون سـنـة 1140 هـ/1726 م بإنشـاء مطبعـة بالحرف العربي بإستانبول وبرزت بعد ذلك مطبعتـان مسيحيتـان أخريـان بجبل لبنـان أي بشوير سنة 1147 هـ/ 1734 م وبيروت سنة 1165 هـ/ 1751 م .

وقد ركزت الدراسـة على تحليل الظروف التي أحاطت بنشأة المطبعة العربيـة بالمشرق وأسباب التأخير الحاصل في ظهورها بالنسبـة لأروبا وتناول البحث بالتحليل أيضا محتوى الـكتـاب العربي المطبوع وتأثيره على مجرى الحيـاة الثقـافيـة في القرن الثـامن عشر الميلادي .

إن ظهور أربـع مطـابع في ظـرف نصف قرن يعتبر دليلا واضحا على بروز تغيير جذري في توجهـات المجتمع العثمـاني وتطلعـه للدخول في مرحلـة جديدة من تاريخه ألا وهي مرحلـة التجديد الفـكري والثقـافي التي سيلعب فيهـا الـكتـاب المطبوع دورا هامـا في التعريف بهـا ، وما

تبني آلة الطباعة إلا دليلا على حرص الشرقيين على إيجاد شكل جديد لوعاء الكتابة لنقل وبث الأفكار الجديدة التي بدأت تظهر في القرن الثامن عشر بين أوساط المثقفين ورجال النفوذ والتي تتعلّق بالتصور الجديد للمجتمع وكيفية النهوض به .

إن معالجة موضوع أسباب التأخير في دخول الطباعة العربية للعالم الإسلامي يأخذ بعدا كبيرا حين نعلم أن المسلمين كانوا على دراية تامة بوجود هذا الاكتشاف بأروبا منذ القرن الخامس عشر بل قبل ذلك بكثير وذلك في مهده الأول ببلاد الصين أين اخترعت الأحرف المتحركة منذ القرن الحادي عشر . ويطرح نفس المشكل بالنسبة للمسيحيين العرب الذين كانوا مطلعين على مطابع بقية الأقليات الدينية في الدولة العثمانية من يهود وأرمن ويونانيين إلى جانب تقبلهم للكتب العربية المطبوعة بأروبا منذ بداية القرن السادس عشر وهذا عنصر آخر هام يضاف إلى بقية عناصر المشكلة .

ولهذا كان من الضروري البحث عن تحفظات المسلمين والمسيحيين العرب إزاء استعمال فن الطباعة وأسباب اعتراضهم على تعويض المخطوط بالكتاب المطبوع . ولا يمكن فهم كل جوانب الموضوع إلا بوضعه في إطاره التاريخي مع التركيز على الفترة التي سبقت دخول المطبعة العربية للمشرق والتي تعتبر أساسية في التعرف على تفكير المثقفين في الدولة العثمانية بخصوص مستقبل الحضارة الإسلامية ، وما الرغبة في تغيير الأدوات الثقافية إلا تعبير واضح عن عزيمة الشرقيين في تبني منهجية جديدة في العمل الفكري وأسلوب جديد في تغيير المجتمع حسب مقتضيات العصر وطريقة متميزة في تعاملهم مع الغرب ، ذلك أن تبني المطبعة يعتبر تفتحا على مكتشفاتها وتقنياتها .

إن استعارة فنون الطباعة كانت فرصة ثمينة للمسلمين للتحاور حول طرق تجديد مجتمعهم على مختلف الأصعدة وأيضا لتقييم الرصيد الحضاري الذي وصلوا إليه . وفي خضم هذه المناقشات كانت الاختيارات صعبة نظرا لاختلاف الرؤى ولتناقضها بالخصوص ، حيث برز تياران متنازعان الأول تقليدي محافظ والثاني متجدد متفتح وكانت النزعة الأو لى

تعارض مبدأ استعمال التقنيات الحديثة الواردة من أروبا باعتبارها من اختراع الكفار ، وترى في ترك الوسائل التقليدية المعتمدة آنذاك بمثابة الإعلان الصارخ عن القطيعة مع الماضي المجيد ولذلك فإنها ناهضت بشدّة إدخال المكتشفات السلمية الأروبية إذ أنها تحمل آراء ونظريات غريبة هدفها غزو المجتمع وتحدي المسلمين في عقر دارهم .

أما النزعة الإصلاحية فقد كانت تعمل على الدفاع عن المجتمع الإسلامي من زاوية أخرى وذلك بالتفكير في أسباب انحطاطه وطريقة النهوض به بالاعتماد على التجربة الغربية انطلاقا من استعمال تقنياتها المتطورة وترى في ذلك النهج الأمثل لتطوير المجتمع والانتقال به إلى مرحلة حضارية جديدة .

إن الحوار بين المسلمين بخصوص النهوض بالمجتمع كان في بدايته في القرن الثامن عشر وكانت قضية المطبعة من أوائل المشاكل التي طرحت آنذاك وقد حصل الصراع بين المحافظين والإصلاحيين حول إدخالها وهو في الآن نفسه يعبر عن خلفية أخرى في الصراع الحضاري بين المخطوط والكتاب المطبوع بين القديم والحديث وباختصار فهو صراع بين الجمود والتطور .

وإذا ما دافع المحافظون عن المخطوط فباعتباره وعاء الكتابة الذى نشر تعاليم الإسلام وأيضا لأنه كان مخلصا في نقل القيم الحضارية للمسلمين عبر العصور ، وبالتالي فإنه من المجازفة أن يقع إبداله بالكتاب المطبوع لأن هذا الوعاء الجديد للمعلومات يأتي من بلاد غير إسلامية وهو محل ريب فضلا عن تشويه الكتابة العربية الجميلة بتعويضها بأحرف معدنية فيفقد الحرف العربي جماله و « قدسيته » باعتباره الرسم الذى كتبت به الآيات القرآنية. وأخيرا يعتبر المحافظون أن فن الطباعة سيزاحم مهنة الوراقة وسيحرم بالتالي آلاف النساخين من مورد رزقهم .

أما الإصلاحيون فيرون المخطوط من زاوية أخرى فهم يعيبون عليه عجزه على نقل قيم ومكتسبات الحضارة الإسلامية وعدم قدرته

على الإكثار من نسخ المؤلفات العربية التي هي بصدد الانقراض كما أنهم يهاجمون النساخين لإهمالهم وعدم شعورهم بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم في المحافظة على تراث الأمة المكتوب فعملهم بطيء وغير جيد إذ يكثرون من الأخطاء ومع ذلك فإن أسعار المخطوطات باهظة لا تمكن المسلم المتوسط الحال من اقتنائه وهذا ما ساهم بقسط وافر في حرمانه من العلم وتسبب بالتالي في انتشار الأمية في ربوع العالم الإسلامي .

إنه من الضروري أن نتساءل عند تتبع هذه النقاشات الثرية بين المحافظين والإصلاحيين إن كانت هذه الندوات تمهيدا للتيارات الفكرية الكبرى التي عرفت في القرن التاسع عشر والتي ساهمت في ظهور حركة النهضة الأدبية العربية خاصة وان الأداة الأساسية في نقل الآراء والمعلومات كانت الصحافة والكتاب المطبوع ، وهذا لأن الباحثين المعاصرين عند دراستهم لحركة النهضة كانوا يقتصرون على تناولها في فترة وقوعها دون التأمل في بدايتها وهنا يجدر بنا أن نتساءل ثانية إن كان من المجدي تحديد بداية النهضة العربية مع دخول الطباعة العربية للدولة العثمانية أي في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي .

لهذا كان لزاما علينا عدم عزل ظاهرة المطبعة وعدم الاقتصار على اعتبارها مجرّد آلة صناعية بل إقحامها في الإطار الاجتماعي والتاريخي للشرق الأوسط في القرن الثامن عشر ووضعها في خضم التحولات الاجتماعية التي بدأت تغير العالم الإسلامي .

إن دراسة هذه الفترة التي عرفت تحولات جذرية هي أساسية لإلقاء مزيد من الأضواء على ظهور المجتمع العثماني الحديث وما القرن الثامن عشر إلا نقطة اتصال بين عهدين : عهد جمود وعهد يقظة العالم الإسلامي .

تنقسم هذه الدراسة إلى جزئين، تناول الجزء الأول بالتحليل التحضيرات العربية لدخول المطبعة سواء لدى المسلمين وذلك بتتبع أطوار الحوار الذي دار بين المحافظين والإصلاحيين ، وأيضا لدى المسيحيين العرب

الذين سعوا للحصول على مطبوعات من أوروبا وخاصة من كنيسة روما وحاولوا إنشاء مطبعة بقوزحية بجبل لبنان سنة 1610 لكنها سرعان ما توقفت .

أما الجزء الثاني فقد خصص لدراسة مراحل تأسيس المطابع العربية ابتداء من تحليل ظروف نشأتها إلى الصعوبات الفنية والمادية التي اعترضتها وقد وقع التركيز بعد ذلك وبدرجة كبيرة على دراسة إسهام مختلف المطابع في التحول الثقافي والاجتماعي من خلال التعرف على محتوى الكتب المطبوعة ووجهتها وتوزيعها وصداها لدى المتعلمين وهذا ما ساعد على التعرف على مفهوم المطبعة لدى الشرقيين من خلال ما عبروا عنه في كتبهم المطبوعة وعن انشغالاتهم وتصوراتهم لمجتمع المستقبل.

أما عن النتائج الحاصلة فقد أبرزت الدراسة أولا ومن خلال الأرقام ضعف الإنتاج المطبعي وهو ما يدل على صعوبة الانطلاقة بالنسبة للمطابع الأربع إذ لم تتوصل مطبعة إستانبول إلا الى طبع عشرين كتابا (فيما بين سنتي 1726 — 1787) ، أما حلب فقد أصدرت ثمانية كتب (1706 — 1711) أما بيروت فلم تصدر سوى كتابين اثنين (1751 — 1766) ثم بينت الدراسة ثانيا اختلاف التصورات لفوائد الطباعة سواء لدى المسلمين أو المسيحيين واختلافات تأثيرها على مجرى الحياة العلمية والأدبية . فبالنسبة للمسيحيين تم تسخير المطبعة لخدمة الدين ولترسيخ عقائد كل من المذهبين الأرثودكسي والكاثوليكي فقد نظروا للكتاب المطبوع لا باعتباره وسيلة لنشر العلوم الحديثة أو لتوعية فكرية بل بوصفه أداة لبلورة وتنشيط شعورهما الطائفي . فظهرت طبعات عديدة للكتب المقدسة والطقوس المسيحية المختلفة والجدل الديني وكلها تكرس الصراع الطائفي بينها والجدل القائم منذ دعوة كنيسة روما للاتحاد مع الكنائس الشرقية في القرن السادس عشر .

إن مؤسسي مطابع حلب وشوير وبيروت وهم من رجال الدين المسيحي كانوا يشجبون دور المخطوط ويتهمونه بنشر الأكاذيب والبدع والتحريفات حول الديانة المسيحية في الشرق وعلى العكس من ذلك

فإنهم يرون في الكتاب المطبوع فاتحة عهد جديد حيث إنه سيقضي على الانشقاق ولكن لكل طائفة تصورها الخاص في نشر الكتب الدينية السليمة من الأخطاء العقائدية والتشويهات اللغوية التي سببها الناسخون.

أما عن نتائج إدخال المطبعة لدى المسلمين بإستانبول ، فقد كانت مختلفة عما وصل إليه المسيحيون إذ اقتصر ابراهيم متفرقة ومن خلفه على نشر كتب غير دينية خوفا من تحريفها واهتموا إذن بمواضيع أخرى. وبما أن المطبعة كانت بأيدي رجال الباب العالي فقد سخروها للدعاية السياسية وذلك بنشر كتب عن تاريخ السلاطين العثمانيين ولإبراز أمجادهم وأيضا كانت منبرا للاصلاحيين حيث ظهرت كتب تدعو للاصلاح السياسي والعسكري لاستعادة الأمجاد الماضية .

أما عن صدى هاته الكتب في أوساط المتعلمين في استانبول وبلاد الشام فقد كان ضعيفا وكان الإشعاع باهتا حيث لم تجد إقبالا واسعا نظرا لعدم استعداد المثقفين ، وعددهم قليل ، لقبول هذا الوعاء الجديد للكتابة ونظرا لقلة الكتب العلمية الهامة التي طبعت وأيضا لانعدام سياسة ثقافية واضحة لدى الباب العالي تكون فيها المطابع احدى المؤسسات التي تشع على المجتمع بتزويد المدارس والمكتبات بالكتب والوثائق الضرورية .

ومهما كان الأمر فإن إدخال الطباعة العربية بالمشرق كان علامة بارزة في تاريخ هاته المنطقة حيث تدل على بداية تفتح المجتمع العثماني على العالم الغربي باستعمال مكتشفاته وعلومه ولكن ذلك لم يساهم في نشر العلوم الحديثة ولا في انتقال الآراء الجديدة بين مختلف الطوائف بل كانت القطيعة واضحة . وبالرغم من بداية تعود المثقفين على استعمال الكتاب المطبوع وعودة الرغبة في القراءة بفضل هذا الشكل الجديد في أوعية الكتابة فإن المخطوط بقي سيد الموقف حتى منتصف القرن التاسع عشر ومن هنا فقد كان بقاؤه رمزا لتواصل الأسلوب الحضاري القديم حتى عصر النهضة .

هذا ملخص البحث الذي قدمناه باللغة الفرنسية .

والله ولي التوفيق .